

تفريغ المحاضرة الثالثة في العقيدة: الأصول الثلاثة
يوم الخميس الموافق 19-7-2018

بشرح فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/ طلعت زهران- حفظه الله
الدورة النسائية -مصر-الاسكندرية -العصافرة- جامع الإمام مسلم

اعلم أرشدك الله لطاعته، أن الحنيفية ملة إبراهيم: أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}. الذاريات: 56 (أَرَشِدَكَ اللَّهُ) أي هداك إلى الرشـد ووفقك إليه، والرشـد هو الاستقامة على طريق الحق ضد الغي، والغـي هو الضلال.

والطاعة هي موافقة أمر الشرع بامتنال ما أمر الله تعالى واجتناب ما نهى عنه، ولذلك هي أعم من العبادة.

(اعْلَمْ) ماذا؟ قال: (أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ): مأخوذة من الحنـف وأصله في اللغة الميل، عن الشرك قاصداً إلى التوحيد. دليـله قوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: 120].

قال تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} [آل عمران: 95]
المِلَّة هي الشَّرْعَة: تفسر بمعنى الدين: ما شرعه الله عز وجل على السنة رسله، ثم ما هو متفق عليه بين الرسل أجمعين كالتوحيد وأصول التوحيد، ومنه ما هو مختلف باختلاف الشرائع وهو الفروع.
وإنما نص هنا المصنف على إبراهيم عليه السلام لكونه هو المذكور في القرآن، {فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} أضافها الله عز وجل إلى إبراهيم لكونه إماماً، ولأنه أبو الأنبياء، ولأن النبي - صلى الله عليه وسلم - جاء إلى قوم كل يدعي أنه تابع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقريش تدعي أنها على ملة إبراهيم، وكذلك اليهود والنصارى قال الله عز وجل: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: 67].

(مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) كأنه قال: عبادة الله بالإخلاص وترك عبادة ما سواه، والعبادة كما ذكرناه في اللغة هي الذل والخضوع يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف لله عز وجل.

(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) والإخلاص هو الخالص الصافي، وهو ما زال عنه الشوائب، بمعنى أن تقع هذه العبادة وألا يكون في القلب سوى الله عز وجل بأن لا يريد من عبادته تلك إلا الله عز وجل فلم يكن ثمَّ قلبٌ متصفٌ بالعبودية لله عز وجل إلا وقد تفرغ من التعلق بما سوى الله عز وجل.

(وَبِذَلِكَ) أي العباداة الخاصة (أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا) مسلمهم وكافرهم، ولو قال: الخلق لكان أحسن، قال الله عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56] الحصر، (ما، وإلا) أعلى درجات الحصر، ففيه إثبات الحكم في المذكور وهو العباداة لله عز وجل {لِيَعْبُدُونِ}.

ومعني عبدون: العباداة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، فهي توحيد وزيادة. فالعبادة مبناها من حيث الصحة والعدم والفساد على التوحيد، فكل عباداة خلت عن التوحيد فهي عباداة باطلة فاسدة، لأن أصل العباداة أن تكون مبنية على شرطين اثنين لا تصح إلا بشرطين وهما الإخلاص والمتابعة.

فكل عباداة لا توحيد فيها ليست بعبادة كما قال تعالى في الحديث القدسي: («أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيره تركته وشرك»). وأعظم ما أمر الله به عز وجل من سائر أمور أو أوامر الشريعة التوحيد، وهو (إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ). فدل على أن مراده بالتوحيد هنا توحيد الإلهية، وإنما خص المصنف هنا نوعاً من هذه الأنواع الثلاثة لكون المعركة القائمة بين الرسل وأقوامهم إنما هي في توحيد الإلهية، ولذلك قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: 36].

وأعظم ما نهى عنه هو الشرك الأكبر لأنه عرفه بقوله: (دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ)، وهذا تخصيص للشرك في الإلهية. والدعوة هنا بمعنى العباداة لأن الدعاء هو العباداة، فيشمل دعاء المسألة ودعاء العباداة. لقوله تعالى {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 22]، النهي عن اتخاذ الأنداد مع الله بأي وجه من الوجوه، وجاء في الحديث الصحيح (أي الذنب أعظم؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «أن تجعل لله نداً وهو خلقك») إذا جعل الند لله هو الشرك («أن تجعل لله نداً وهو خلقك») وفي رواية عند مسلم أيضاً (أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تدعو لله نداً وهو خلقك»). وجاء في الصحيحين عن أبي بكر قال: كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثم قال وذكرها «الإشراك بالله».

والدليل قوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} النساء آية: 36. {وَاعْبُدُوا} أمر، والأمر يقتضي الوجوب كما تقول {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [البقرة: 43]، {أَقِيمُوا} هذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب. إذا عباداة الله تعالى واجبة، والخطاب هنا موجة للمكلفين، والمراد تذللوا لله تعالى بالله.

والدليل قوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} النساء آية: 36. {وَاعْبُدُوا} أمر، والأمر يقتضي الوجوب كما تقول {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [البقرة: 43]، {أَقِيمُوا} هذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب. إذا عباداة الله تعالى واجبة، والخطاب هنا موجة للمكلفين، والمراد تذللوا لله تعالى بالله.

بالعبادة، وهو عام يشمل أنواع العبادة كلها، (وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا: هذا فعل مضارع سُلِّطَ عليه لا الناهية فجزمته، والنهي يقتضي التحريم. إذا الشرك بنوعيه محرم.

إذا الشرك بنوعيه سواء كان شركاً أكبر أو شركاً أصغر فهو محرم.

(شَيْئًا) صرف العبادة لأي نوع عدا الله عز وجل يعتبر من الْمُشْرِكِ به.

وهذا يجعل المرء يفكر بنفسه أولاً في علمه وتعلمه، بأن تتجه النفس إلى أعظم ما أمر الله عز وجل.

فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

فإذا قيل لك: من ربك؟ فقل ربي الله الذي رباني وربجميع العالمين بنعمه، وهو معبودي ليس لي معبود سواه.

(مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ) الرب: يُطلق ويراد به الخالق المعبود، ولفظ الله والرب إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، فإذا افترقا يفسر الله بمعنى الخالق المعبود المطاع، وإذا انفرد لفظ الرب فُسرَّ بالخالق المربي المعبود كذلك. وإذا اجتمعا يفسر الرب بالمربي أو الخالق المالك المدبر لشؤون الخلق، ويفسر الله بالمعبود.

(وَدِينُهُ) الإسلام وهو فعل ما أوجب علينا أن نفعله وترك ما أوجب علينا تركه.

(ونبيه) لأن الله تعالى لم يخلق هذا الخلق عبثاً وإنما لحكمة عظيمة بالغة من حيث الأصل ومن حيث الفرع، كان لا بد من رسولٍ وواسطة يكون بين الخلق وبين خالقهم يبين لهم ما أَرَادَهُ الله عز وجل من عبادته.

هذه هي الأصول الثلاثة ذكرها المصنف مجملَةً ثم فصلها تنميماً للفائدة

فقال رحمه الله تعالى:

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟) أي من خالقك ورازقك ومعبودك

(فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ) يعني هو خالقي ومالكي

الذي رباني أي خلقتني وأوجدني، ثم رباني بنعمه الظاهرة والباطنة

(وَرَبِّيَ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ تَعَمِيمٌ بعد تخصيص

وَهُوَ مَعْبُودِي ليس لي معبود سواه، وهذا معنى لا إله إلا الله

لأنه يفسر أصلاً من الأصول التي يُسأل عنها العبد في قبره، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

والدليل قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الفاتحة آية: 2.

دليل على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة لكونه سبحانه هو المربي لجميع العالمين،
(الْحَمْدُ) أل هذه للاستغراق، يشمل أنواع الحمد كلها، وهو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله.
{لِلَّهِ} على الصحيح مشتق من الإله، والإله فعال بمعنى مفعول وَاللَّهُ يَأْلُهُ إِلهَةٌ وَاللَّوْهَةُ بمعنى عَبْدٌ يَعْبُدُ
عِبَادَةً.

{رَبِّ الْعَالَمِينَ} المراد بالجمع هنا الأفراد والأنواع المختلفة، والعالمون المكلفة وغير المكلفة.
وكل ماسوى الله عالم، وأنا واحد من ذلك العالم. فإذا قيل لك: بمعرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته، ومن
آياته الليل والنهار، والشمس والقمر، ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهما.
(وَكُلٌّ مِّنْ سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِّنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ).

أي فرد منجملة المخلوقات الربوبية المتعبدة لله عز وجل قهراً.

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمِ عَرَفْتَ رَبِّكَ؟)

(فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ)

جمع آية، والآية هي العلامة والدلالة والبرهان والحجة، (وَمَخْلُوقَاتِهِ) جمع مخلوق وهو ما وُجِدَ بعد عَدَمٍ،
وهما بمعنى واحد، وإن كان الأصل في الآيات أنه يشمل الآيات الشرعية والآيات الكونية.

والدليل قوله تعالى: {وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ
الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} فصلت آية: 37.

(وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} [فصلت: 37])

فمراده بالآيات هنا الآيات الكونية، ولا غبار على ذلك فأياته ومخلوقاته بمعنى واحد، وهي التي نصبها الله
تعالى أدلة على وحدانيته جل وعلا

(وَمِنَ مَّخْلُوقَاتِهِ) أي من أعظم مخلوقاته التي تدل عليه جل وعلا (السَّمَوَاتُ) يعني سعتها وارتفاعها
(وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ) امتدادها وسعتها

(وَمِنْ فِيهِنَّ) من المخلوقات العظيمة كالجبال ومما لا يعلمه إلا الله عز وجل، (وَمَا بَيْنَهُمَا) كذلك، إذا مثل
لهذين النوعين بالليل والنهار والشمس والقمر والسموات السبع والأرضين السبع، فكلها عند التأمل
والتدبر تدل على أن هذه المخلوقات تدل على خالقها جل وعلا.

(وَمِنْ آيَاتِهِ) أي من الأدلة والبراهين على وجوده تعالى وتفرد به بالإلهية والربوبية {اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ} أي
وجود الليل والنهار بتعاقبهما واختلافهما بالطول والقصر، هذا يذهب ويعقبه الآخر وهلم جرا، في انتظام
محكم بديع.

{وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ}

فهذه وإن كانت آيات عظيمة قد تتعلق بها النفوس الضعيفة إلا أنه لا يقتضي أن يسجد لها لأنها مخلوقة، وخصّ السجود هنا دون سائر العبادات مع كونه يدل على العبادات كلها لأنه أبلغ ما يكون من التعظيم والذل لله سبحانه، فحينئذ ما دونه يكون من باب أولى وأحرى.

{وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ}،

إنما المراد به العموم فذكر بعض العبادات دالاً بها على البعض الآخر أي عبدوا الله وحده لأنه الخالق العظيم لكم ولهذه الآيات والمخلوقات العظيمة.

استدل جل وعلا بهذه الآيات على أنه مستحق للعبادة.

وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} الأعرافية: 54.

(في سِتَّةِ أَيَّامٍ} أولها الأحد وآخرها الجمعة

{ثُمَّ اسْتَوَى} أي علا وارتفع {عَلَى الْعَرْشِ} السقف المحيط بالمخلوقات

{يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} أي يغطي كل واحدٍ منهما الآخر فيذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكلّ منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أي سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا والعكس بالعكس.

وخلق الشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ.

{مُسَخَّرَاتٍ} أي مذلات جارية في مجاريها بتسخير الله تعالى لا تتقدم ولا تتأخر

{بِأَمْرِهِ} جل وعلا، والأمر مقابل للخلق كما قال سبحانه:

{أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} يعني هو المتفرد بالخلق لا شريك له فيه

{(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)} الأمر الكوني القدري التشريعي، ومن هنا استدل أهل السنة والجماعة على أن

القرآن ليس بمخلوق لأنه من أمره جل وعلا.

وإنما الخلق يكون بأمره فهو ثمرة كن فيكون.

{تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}

{تَبَارَكَ} أي عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانها

انتهت المحاضرة الثالثة من الاصول الثلاثة